يحملها هناك إلّا زكريا، مهما تخرج بالقرعة الشرعية من بين القديسين المتنازعين بشأنها.

و﴿ٱلْمِحْرَابَ﴾ كأصل هو محل الحرب فإن عبادة الرحمن محاربة الشيطان، ولأن العبادة الخالصة بحاجة إلى الانسراح عما سوى الله، فالمحراب الحرب.

هو أيضاً من الحريب: السليب، يعني عن أشغال الدنيا، وهو المقدَّم في كلّ مسرح ﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ﴾[1] فالمحراب معنوياً هو محل الانسراح عما سوى الله لإخلاص عبادة الله بحرب الشيطان، وهو مكانياً المقصورة في مقدَّم المعبد لها باب يصعد إليه بسلّم ذي درجات قليلة، ويكون من فيه محجوباً عمن في المعبد، و﴿كُلَّمَا دَخَلَ﴾ مما يلمح بهذه الخصوصية لمحرابها، وكما يصرح به ﴿إِذْ تَسَوَّرُواْ ٱلْمِحْرَابَ﴾[2] حيث المعبد المكشوف لا يتصور فيه التسوُّر.

والكفالة - ككلّ - هي من المواضيع الشرعية، سواءً في التربية والحفاظ بدنياً أو معنوياً أم مالياً أماهيه مما تصّح فيه الكفالة.

وأصلها من الكفل: المركب، في ركب الحياة كبعض أو ككل، وقد تكفها زكريا في مسير الحياة كفيلاً ضامناً عادلاً معصوماً في مسيره إلى مصيره ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾ و﴿رِزْقًا﴾ يعني، رزقاً معيشياً إلى رزق معنوي لتكون متحررة عمن يرزقها سوى الله مهما كانت للكفالة الرسالية دورها الفعال على عين الله ورعايته.

أجل ﴿رِزْقًا﴾ جليلاً لا يُعرف مصدره ولذلك نُكِّر، واحتار زكريا من

(١) سورة سبأ، الآية: ١٣.
(٢) سورة ص، الآية: ٢١.

ذلك الرزق المكرور دونما انقطاع فـ ﴿قَالَ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ﴾ أي زمان ومن أيٍّ والسبل المألوفة له - وأنا الوسيط الوحيد فيها بظاهر الحال - منقطعة عن قمة المحراب، حيث لا يُسمح لأحد غيري أن يدخله، فـ ﴿أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ﴾؟.

﴿قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ﴾ بتقطع الأسباب المتعوّدة، وكما تحرّرت عنها في ذلك التحرُّر ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ نحاسبه نحن في حياتنا المتعودة، أو يحاسبه الله، مهما كان رزقه بغير حساب بميزان وحساب.

ويا لها من خنوع وخشوع أمام العطية الربانية، احتفاظاً بالسرِّ الذي بينها وبينه، والتواضع في التحدث عن ذلك الرزق السرّ، دون أية مباهاة وتنفج وتبهُّج.

هنا لا نخوض في مواصفة ذلك الرزق ونوعيته، ولكننا نعلم حسب النص أنه ﴿مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ﴾ عندية خاصة مباركة طيبة، مختلفة عن سائر الرزق المؤتلفة، فليكن من الجنة أم خلق الساعة.

فلا يرد نقد الجمعية الرسولية الأمريكية على ذلك الرزق بأن «الجنة ليست محل أكلٍ وشربٍ بل هي محل التقديس والتسبيح وكلّ تنعماتها روحية»[(١)].

أولاً: أن ﴿مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ﴾ لا تخصُّ الجنّة إلّا بتأويل أن الله ساكن الجنّة فالرزق من عنده ليس إلّا من الجنّة.

ثانياً: أن الجنّة حسب القرآن والعهدين فيها تنعمات مادية إضافة إلى الروحية.

ثالثاً: لن هذه الجنة علّها جنّة آدم والتي صعد إليها المسيح وهي من جِنان الدنيا.

(١) كتاب الهداية للجمعية الرسولية الأمريكية ٢: ٣٦.

ورابعاً: إن الرزق من عند الله يعني هنا من غير السُّبل المتعودة وكما «إن الله سخر الغربان لإيليا فكانت تأتيه بلحم صباحاً ومساءً» (امل ١٧: ٤ و٦).

كما و«هيأ له الكعكعة (نوع من الخبز) وكوز الماء فنبهه الملاك للأكل والشرب حتى سار بقوة تلك الأكلة أربعين يوماً» (امل ١٩: ٥ - ٩).

وإذا هم يستغربون رزق الطاهرة من عند الله حلالاً طيباً، فكيف يستقربون شرب المسيح جديداً من نتاج الكرمة - الخمر - في ملكوت الله (متى ٢٦: ٢٩ ومرقس ١٤: ٢٥ ولوقا ٢٢: ١٨) أو مما يأكل منه التلاميذ على مائدة المسيح في ملكوته (لوقا ٢٢: ٣٠) هذه مريم الطاهرة العذراء تجد عندها رزقاً من عند الله، وهي منقطعة عن عباد الله، ثم انظر إلى فاطمة الزهراء مولاة العذراء، حيث تجد عندها رزقاً وتتمثل لأبيها صلى الله عليه وآله وسلم بقول الله عن العذراء يا أبت ﴿هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾(١) (٢).

(١) سورة آل عمران، الآية: ٣٧.

(٢) الدر المنثور ٢: ٢٠ - أخرج أبو يعلى عن جابر أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أقام أياماً لم يطعم طعاماً حتى شقَّ ذلك عليه فطاف في منازل أزواجه فلم يجد عند واحدة منهن شيئاً فأتى فاطمة فقال: يا بنية هل عندك شيء آكله فإني جائع؟ فقالت: لا والله، فلما خرج من عندها بعثت إليها جارة برغيفين وقطعة لحم فأخذته منها فوضعته في جفنة لها وقالت: والله لأوثرن بهذا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على نفسي ومن عندي وكانوا جميعاً محتاجين إلى شبعة طعام فبعثت حسناً أو حسيناً إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فرجع إليها فقالت له: بأبي وأمي قد أتى الله بشيء قد خبأته لك فقال: هلمي يا بنية بالجفنة فكشفت عن الجفنة فإذا هي مملوءة خبزاً ولحماً فلما نظرت إليها بهتت وعرفت أنها بركة من الله فحمدت الله تعالى وقدمته إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فلما رآه حمد الله وقال: من أين لك هذا يا بنية؟ قالت: يا أبت هو من عند الله...

وفي نور الثقلين ١: ٣٣٣ عن تفسير العياشي عن سيف بن نجم عن أبي جعفر عليه السلام قال: إن فاطمة ضمنت لعلي عليه السلام عمل البيت والعجين والخبز وقمّ البيت (كنسه) وضمن لها علي عليه السلام ما كان خلف الباب نقل الحطب وأن يجيء بالطعام فقال لها يوماً: يا فاطمة هل عندك شيء؟ قالت: لا والذي عظَّم حقك ما كان عندنا منذ ثلاث إلّا شيء نقريك به قال: أفلا أخبرتني؟ =

هُنا زكريا المكفل مريم لما يرى هذه الكرامة الربانية لها، تتحرك عنده الرغبة في ذرية طيبة، حكمة عالية مرغوبة فيها لامتداد الرسالة في نسله.

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾﴾:

إنه لم تكن حتى الآن لزكريا ذرية، وطبيعة الحال في الدعاء أنها عند انقطاع الرجاء، وانقطاع الأسباب المتعودة لحصول المدعو له، فـ ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ﴾ الذي ربيتني بالتربية الرسالية وهي خارقة العادة ﴿هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ كخارقة أخرى.

و﴿مِن لَّدُنكَ﴾ استيهاب من رحمته اللدنية الخاصة، ليست كالعادة بأسبابها العادية ﴿إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ فهو - إذاً - تطلُّب لخرق الأسباب المألوفة في الإيلاد.

فقد حمل زكريا ﴿هُنَالِكَ﴾ مظهراً من مظاهر طلاقة المشيئة الإلهية، الطليقة عن المألوف، رغم ما نحسبه قانوناً لا يتخلف فنشك - إذاً - في كلّ حادث خارج عن نطاق هذا القانون المزعوم!.

فها هو زكريا الشيخ الكبير وزوجه - العاقران - اللذان لم يلدا في صِباهما، هُنالك تجيش في قلبه الرغبة في ذرية طيبة هبة من عند الله، وحق

= قالت: كان رسول الله ﷺ نهاني أن أسألك شيئاً فقال: لا تسألي ابن عمك شيئاً إن جاءك بشيء عفواً وإلّا فلا تسأليه، قال فخرج عليه السلام فلقي رجلاً فاستقرض منه ديناراً ثم أقبل به وقد أمسى فلقي المقداد بن الأسود فقال للمقداد: ما أخرجك في هذه الساعة؟ قال: الجوع، والذي عظم حقك يا أمير المؤمنين عليه السلام قال: قلت لأبي جعفر عليه السلام: ورسول الله ﷺ حيّ؟

قال: ورسول الله ﷺ حي، قال: فهو أخرجني وقد استقرضت ديناراً وسأوثرك به فدفعه إليه فأقبل فوجد رسول الله ﷺ جالساً وفاطمة تصلي وبين يديها شيء مغطى فلما فرغت أحضر ذلك الشيء فإذا جفنة من خبز ولحم، قال: يا فاطمة أنّى لك هذا؟

له وهو يرى بين يديه مريم العذراء الصالحة الرعناء: ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾[1] - ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾﴾[2].

﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾﴾:

«هنا» نادته الملائكة وفي مريم ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ...﴾[3] ولا منافاة بينهما فإن الملائكة هم وسطاء في ذلك البلاغ المبين.

والتبشير هنا يحمل مواصفات أربع ليحيى:

١ - ﴿مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ هي المسيح عيسى ابن مريم، فإنه كلمة قالها من قبل[4] وكلمة دالة على الله تكويناً حيث وُلِدَ دون أبٍ، وكلمة

(١) سورة الأنبياء، الآيتان: ٨٩، ٩٠.
(٢) سورة مريم، الآيات: ٢-٦.
(٣) سورة مريم، الآية: ٧.
(٤) كما في الأصل العبراني (تث ٣٣: ١ - ٢) «وزئت هبّراخاه أشر برخ موشه إيش ها الوهيم إتْ بني يسرائيل لفني موتو (١) ويومر يهواه مسّيني باو زارح مسّعير لامو هو فيع مهر فاران وآتاه مرببت قدش مى مينواش دات لامو» - «وهذه بركة باركها موسى رجل الله بني إسرائيل عند موته (١) وقال: الله من سيناء جاء تجلى من ساعير، تلعلع من جبل فاران وورد مع آلاف المقدسين من يمينه ظهرت الشريعة النارية». =

رسولية حيث تدل على الله بربانية أعماله وفعاله وقاله، وكلمة رسالية تكلم بها المرسلَ إليهم، مربع الكلمات يحملها المسيح عليه السلام ولم يحملها كلّها سائر الخلق أجمعين، فقد ولد دون أبٍ ولادةً منقطعة النظير في تاريخ الإنسان، وآدم لم يكن وليداً حتى يكون هو الأوَّل في تلك الولادة، فإنَّما خُلِقَ من تراب.

وليس كونه كلمةً آيةً خارقة للعادة من حيث الولادة، ليفضله على سائر الرسل، إذ إنها آية أقوى من سائر الآيات المبصَرة لأن بني إسرائيل هم أغوى من سائر الأمم، ثم آية القرآن هي أقوى الآيات الرسولية والرسالية على الإطلاق لأنها تحلق على كافة المكلفين منذ بزوغها إلى يوم الدين.

٢ - ﴿وَسَيِّدًا﴾: عظيماً في الحقل الروحي علماً وتقىً، يمتاز عن كثير من رجالات العلم والتقوى، الرساليين و«سيداً» في كلّ حقول السيادة الصالحة.

فالتصديق بكلمة من الله، والسيادة اللّائقة للقيادة، والحصر عن كلّ الشهوات، كلّ هذه من الشروطات الأصيلة للنبوّة حيث تجمع القيادتين الروحية والزمنية.

٣ - ﴿وَحَصُورًا﴾ مبالغة الحصر، وهو الحصر عن الشهوات محرمة ومرجوحة، دون الراجحة في شرعة الله كالنكاح، خلاف ما يهرف بشأنه تبجيلاً له وتخجيلاً لكلِّ هؤلاء الذين تزوّجوا من نبيِّين وسواهم من الصالحين، لا! وإنما ﴿وَحَصُورًا﴾ نفسه عن الشهوات واللهوات

= أقول: وفي دعاء السمات: «وبمجدك الذي ظهر على طور سيناء فكلمت به عبدك ورسولك موسى بن عمران وبطلعتك في ساعير وظهورك في جبل فاران بربوات المقدسين وجنود الملائكة الصافين وخشوع الملائكة المسبحين».

المرجوحات، ﴿وَحَصُورًا﴾ كلّ وجهه بكلِّ وجوهه إلى الله، فهو حصور في ﴿لَآ إِلَٰهَ﴾[١] ثم حصور في ﴿إِلَّا ٱللَّهَ﴾ حسراً عما سوى الله وحصراً في الله.

والحديث الخبيث المفترى على الرسول الطاهر الأمين ﷺ، المحلق للذنب على الكلِّ إلّا يحيى عليه السلام لأن ذكره مثل هدبة الثوب[٢] مضروب عرض الحائط حيث يمس من كرامة الخالق للعورات والشهوات المحلّلة، ومن كرامة الصالحين الناكحين حلّاً!.

أجل! وقد تعني ﴿وَحَصُورًا﴾ فيه فيما تعنيه، تركه - كما المسيح عليه السلام - للزواج على شبقه، ترجيحاً لتقدم الدعوة الرسالية على تحقيق الشهوة المحلّلة، إذ لم تكن ظروفه لتسمح له بالجمع بين الزواج وتحقيق الرسالة، معاكساً لمحمد ﷺ حيث اقتضت ظروفه الرسالية زواجاً وأكثر من الأربع المسموح للأمة تحقيقاً حقيقاً لكرامة الرسالة بضمِّ عوائل كثيرة إلى خضمِّه.

إذاً فـ ﴿وَحَصُورًا﴾ المحلق على كلِّ داعية إلى الله تختلف ظروفه وطقوسه في البعض من مصاديقه، فكما النكاح راجح أم واجب أحياناً، كذلك هو

---

(١) سورة آل عمران، الآية ١٨.

(٢) الدر المنثور ٢: ٢٢ - أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن عساكر عن عمرو بن العاصي عن النبي ﷺ قال: ما من عبد يلقى الله إلّا ذا ذنب إلّا يحيى بن زكريا فإن الله يقول: ﴿وَسَيِّدًا وَحَصُورًا﴾ [آل عِمرَان: ٣٩]، قال كان ذكره مثل هدبة الثوب وأشار بأنملته.
أقول: ولا يرجى من ابن العاصي إلّا هكذا اختلاق معادي على رسول الهدى ﷺ.
واختلاق آخر حفاظاً على «حصور» له إيجاباً وعلى غيره سلباً، أخرجه الطبراني عن أبي أمامة قال قال رسول الله ﷺ: أربعة لُعنوا في الدنيا والآخرة وأمنت الملائكة رجل جعله الله ذكراً فأنث نفسه وتشبه بالنساء، وامرأة جعلها الله أنثى فتذكرت وتشبهت بالرجال، والذي يضل الأعمى، ورجل حصور ولم يجعل الله حصوراً إلّا يحيى بن زكريا، أقول: ذكره حصوراً في الذكر الحكيم دليل أنه من كمالاته الممتازة فنفيه إذاً نقص وعوذاً بالله من هذه الجهالة المزدوجة!.
وفي نور الثقلين ١: ٣٣٥ عن المجمع ﴿وَحَصُورًا﴾ لا يأتي النساء وهو المروي عن أبي عبد الله عليه السلام.

مرجوحٌ أو محرّمٌ أحياناً أخرى، والحصور هو الذي يتابع صالح الدعوة وفقاً لظروفها المواتية المناسبة.

٤ - ﴿وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ وترى هُناك أنبياء غير صالحين حتى يوصف هنا «نبيًّا» بـ ﴿مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾؟

كلّا، حيث يعني ﴿وَنَبِيًّا﴾ رفيع الدرجة، ولأن رفعة الدرجة درجات هنا يقيد بـ ﴿مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ يعني المرسلين، حيث المرسلون درجات والنبيون منهم أرفع شأناً وأنبى مكانة ويحيى منهم، كما و﴿مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ آباء وأمهات منذ آدم إلى زكريا.

فلقد استجيبت الدعوة الحانية، المنطلقة من القلب الطاهر الحاني، الذي علق رجاءه بسميع الدعاء، وهو يملك الإجابة كيف يشاء حيث يشاء، استجيبت في «يحيى» الذي ﴿لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾[1] - ﴿مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ اسمه المسيح عيسى ابن مريم ﴿وَسَيِّدًا﴾ كريماً ﴿وَحَصُورًا﴾ يحصر نفسه عن الشهوات ويملك زمام نزعات من الانفلات، ﴿وَنَبِيًّا﴾ رفيع المنزلة ﴿مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ الرساليين.

ذلك! ولكننا نسمعه كأنه يستغرب ما استقربه الله، استغراباً عن عقره وزوجه لا عن رحمة الله:

﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾﴾:

ولكن ﴿أَنَّىٰ﴾ سؤال عن زمن تحقيق البشارة، وليس استفهام إنكار واستبعاد عنها، فلم يقل «كيف - أو - أين» وإنما «أنّى» - ولكي لا تتأخر

(١) سورة مريم، الآية: ٧.

أكثر مما تأخرت يعرض حاله ﴿وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ﴾ وحال زوجه ﴿وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾ فأُجيب من فوره بتأكيد البشارة ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ﴾ البعيد البعيد عن حساب الناس، العظيم العظيم عند الله ﴿ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ دون رادعٍ ولا مانع، فإنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كُن فيكون. . . فلا ينسب إلى أي عاقل فضلاً عن نبي أن يستبعد من رحمة الله ما رجاه ودعاه ولقد كانت ﴿أَنَّىٰ﴾ في موقعها - حين يرى أن البشارة واقعة موقعها - إذ يبتهج بجدارته لها فوزاً بحظوتها، حاصلاً على مزيتها، فتطلب زمن تحققها، عالماً أنه يُورق الهشيم ويستنتج العقيم.

وهذه طبيعة الحال لمن بشّر بما يتمناه، وهي غريبة عن حاله على رجائه أن يولد له فرط السرور عند أوّل ما يهجم على سمعه ما تقاضاه، استئنافاً في المعرفة وزيادة في الاستبانة، ولا أقل من استعلام زمن الهبة المبشرة.

أجل و﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا﴾[1] عرضاً لحاله البعيدة عن هذه الرحمة الغالية، بعد أن دعا ربه ﴿هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ﴾ وهو الرحمة اللدنية الخاصة، البعيدة عن المألوف تكويناً وتشريعاً، وهذه شيمة كريمة من الصالحين في دعائهم عرضاً لفقرهم وغناه، واستعراضاً لسلب أهليتهم في أنفسهم رجاء رحمة الله.

فما أقبحه تأويلاً عليلاً قيلة القائل: إن الله لما بشَّره بالولد - وكان عنده إن العاقر لا تلد - والعقيم لا تنسل - اعترضه الشيطان حين نادته الملائكة أن ما سمعه إنما هو منه لا منهم، فشك فيما بشر.

وذلك جهل عظيم من قائلة وقلّة بصيرة بمنازل الوحي، فإنهم تُجّل أقدارهم عن تلاعب الشيطان بهم، وإن تخلط النداءان عليهم.

(١) سورة مريم، الآية: ٨.

فإذا كانت الملائكة هي التي بشرته كما قال الله، وقد جرت عادته الرسالية باستماع كلامها، وأَلِف مهابطها، وثلج صدره بما تؤديه عن ربها، فأي عاذرة له - إذاً - في أن يعترضه الريب أو يختلجه الشك.

ولو كان مرتاباً في بشارته فكيف يُنادي ربَّه فيها ﴿رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ﴾...؟!.

﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً ۚ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ۗ وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٤١﴾﴾:

هنا ﴿ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ﴾ وفي مريم ﴿ثَلَٰثَ لَيَالٍ﴾[1] تتجاوبان في مجموع الثلاث الليالي والأنهار.

والآية المطلوبة هنا ليست آية لأصل البشارة كأنه شاكٌّ فيها، وإنما في زمنها حتى يحضِّر نفسه في حالة خاصة وهالة من عبادة راصّة لاستقبال تلك البشارة والتفصيل إلى سورة مريم عليها السلام حيث نفصل فيما فصل الله ونجمل فيما أجمله الله.

﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾﴾:

هنا تُشافه الملائكة مريم الطاهرة المصطفاة وحياً دون رسالة تحمل شرعة رسالية، فلم تصبح به مرسلة من الله كالرُّسل، وكما ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾[2] وحيان هما تقدمتان لوحيين رساليين موسوي وعيسوي عليهما السلام، كما والمؤمنون المستقيمون ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا

(١) سورة مريم، الآية: ١٠.
(٢) سورة القصص، الآية: ٧.